

السلطة والقبيلة من خلال كتاب المقدمة لعبد الرحمن ابن خلدون

د. مزي عبد القادر

جامعة طاهري محمد بشار

أ. شبلي ربيعة

جامعة وهران 2

rabiaa008@gmail.com

الملخص:

إن علاقة السلطة بالقبيلة من العلاقات المعقدة في تاريخ الأفكار والوقائع التي عمقتها التجارب التاريخية، بالموازاة مع هذا الحديث يعتبر المغرب الإسلامي من البيئات المثالية لهذه الإشكالية، من هذا المنطلق حاولت في هذا المقال معالجة المسألة من خلال نظرية عبد الرحمن ابن خلدون.

La résumé

Le rapport entre le pouvoir et l'attribut, est l'un des rapports compliqué dans l'histoire des pensée et des réalités qui sont les plus approfondies par les expériences historiques. En parallèle a ce sujet ; le Maghreb islamique est considéré comme l'un des sociétés parfaites a cette problématique.

Dans cet article j'ai donne l'exemple de théorème d'Abdul Rahman Ibn khaldoun.

تمهيد:

إن السلطة ظاهرة مركبة ومعقدة عرفت المجتمعات البشرية منذ القدم ومن نماذجها سلطة الأب في أسرته وسلطة شيخ القبيلة انتهاء بسلطة الحاكم في الدولة، يقول هشام شرابي في هذا الصدد: "لا نقصد بالسلطة الأبوية سلطة الأب البيولوجي وحسب، بل السلطة المنتشرة في البنية الاجتماعية المتمثلة في النموذج الأبوي والناعبة منه، والمتجسدة في علاقات المجتمع، وحضارته ككل، بهذا المعنى

فإن هذه السلطة ظاهرة وخفية، في آن نراها ونحس بها أينما كنا وأينما توجهنا، فهي تحكم علاقتنا المباشرة وغير المباشرة وتخضعنا في أعماق أنفسنا¹، غير أننا لا يمكننا فهم روابط السلطة في المجتمعات المغاربية عامة والجزائر خاصة دون إبراز دور القبيلة كبنية ووحدة اجتماعية سجلت حضورها في أدوار تاريخية مختلفة (خاصة المرحلة الوسيطة).

1 - السلطة

يستعمل مصطلح السلطة في سياقات مفاهيمية متنوعة وهو مصطلح له دلالاته اللغوية واشتقاقاته المختلفة التي وردت في القرآن الكريم، والمعاجم والكتب الموسوعية، مما يدل على أن السلطة مفهومًا وتطبيقًا لها أصولها المرجعية بحيث تحتكر أفضل الاعتبارات في كثير من الميادين.

أ. لغويًا:

السلطة لغة مشتقة من فعل ثلاثي س / ل / ط، ويدل في لسان العرب على القهر، والسُّلْطُ والسَّليطُ: طويل اللسان، والسليط عند عامة العرب الزيت، والسلطان الحجة والبرهان²، ونجد المعنى نفسه عند صاحب التاج من حيث أنها التغليب وإطلاق القهر والقدرة فيقال سلطه الله عليه أي جعل الله عليه قوة وقهرًا³.

لقد وردت كلمة السلطة في النص القرآني في عدة مواضع بمصطلح سلطان، في قوله تعالى: "ولقد أرسلنا موسى بآيائنا وسلطان مبین"⁴ قال عز وجل: "إنه ليس له سلطان على الذين امنوا و على ربهم يتوكلون (99) إنما سلطانه على الذين يتولونه و الذين هم به مشركون"⁵

من خلال القراءة في هذه الآيات الكريمة نجد أن مصطلح السلطة أو السلطان أخذ عدة معان: العلم، البيان، القوة، إذن مما سبق فالسلطة في اللغة القدرة والقوة على الشيء والسلطان الذي يكون للإنسان على غيره⁶، وهي تحمل عدة معاني يمكن تلخيصها في مجال الدلالة اللغوية كالتالي:

- سلطة الشخص: طال لسانه بالكلام وصار جارحا.
- سلط، يُسلط: تسليطا فهة مسلط.
- سلطة الرجل: أطلق له السلطان والقدرة.

والسلطة أنواع:

1. السلطة الزمنية: المتعلقة بالأمور الدنيوية.
2. السلطة التنفيذية: الحكومة وهيئة موظفيها التي تباشر إجراء القوانين التي تصنفها السلطة التشريعية والسلطة القضائية.⁷
3. السلطة الروحية أو الدينية: للوحي الذي أنزله الله على أنبيائه ولسنن الرسل وقرارات المجامع الفقهية واجتهادات الأئمة، سلطة يمكن أن نسميها بالسلطة الدينية.⁸

- من خلال السياق اللغوي لمصطلح السلطة، نستنتج أن فعل السلطة يقترن بفعل القهر، الإكراه والشدة، وهو يماثل إلى حد كبير فعل حكم الذي يحمل معنى شدة، أوثق.

ب. اصطلاحاً:

1. في علم الاجتماع:

لقد كانت السلطة منذ أقدم العصور ولا تزال موضوع عناية واهتمام الكثير من المفكرين الاجتماعيين، نظراً لصعوبة تعريفها بسبب صفاتها المتعددة وامتزاجها في جل أوجه الحياة الاجتماعية ومن هذه التعريفات:

1. يعتبرها روبرت دال: "قدرة الشخص على التحكم في ردود فعل شخص آخر"⁹.

2. أما السلطة عند أميتا ياتزوني: "هي القدرة على التغلب على المقاومة أو جزءاً لفرض إجراء تغييرات يومية معارضة لها"¹⁰.

3. وعرفها العديد من أصحاب المعاجم على أنها: أحد أشكال القوة التي توجه جهود الأفراد العاملين في المؤسسات البيروقراطية نحو تحقيق الأهداف، التي يصبوا إليها المجتمع والفرد... إذن هي نوع من أنواع القوة تنظم جهود وواجبات الآخرين من خلال الأوامر التي تصدرها لهم"¹¹.

4. "تعني قدرة أشخاص أو مجموعات على فرض إرادتهم على الآخرين، إذ يستطيع الأشخاص ذوي النفوذ فرض قراراتهم بواسطة إنزال عقوبات أو التهديد بها على أولئك الذين لا يطيعون أوامرهم أو طلباتهم، وتكاد السلطة تكون موجودة في كل العلاقات الإنسانية"¹².

- من خلال قراءة هذه المفاهيم نستنتج أن السلطة لها علاقة وطيدة بالقوة تصل إلى حد التعقيد، حتى أن مصطلح سلطة Power بالإنجليزية pouvoir بالفرنسية

يحمل معنى القوة، الاستطاعة، والقدرة، لكن هل يمكن حصر مسألة السلطة في ممارسة القوة لوحدها.

إن معالجة السلطة باعتبارها واقعة اجتماعية يحمل عدة معانٍ، ويرتبط بعدة مسائل:

1. اعتمد ماكس فيبر في طرحه لمفهوم السلطة على فكرة رئيسية وهي: "أن المورد المضاد للقوة هو الشرعية"¹³، بحيث لا تتم سيطرة دون حد أدنى من الشرعية، وعلى هذا الأساس قسم شرعية السلطة لثلاث أقسام: السلطة العقلية - الشرعية - السلطة الكرزمايكية.

- "أما لسلطة التقليدية هي التي تعتقد بأن نظمها ما هي إلا امتداد لنظم كانت موجودة في الزمن السابق، أو أن رئيسها تقلد منصبه بموجب مؤهلات معينة كانت شرعية في الزمن الماضي أو أن الأوامر التي يصدرها مدعومة بأوامر كانت ماثلة في الزمن السابق ومتفق على التصرف بموجبها"¹⁴. في حين السلطة الشرعية العقلية نقصد بها: "الطريقة التي من خلالها يشغل الفرد دور سلطته، وطريقة ادعاء السلطة يجب أن تتم بالطرق والأحكام القانونية العامة"¹⁵.

- أما السلطة الكرزمايكية "فتنعكس بشخصية الفرد الذي يتميز ببعض الصفات والمزايا المقدسة التي تدل على قابلياته الفذة وسحر شخصيته وصلاحيته للدور الذي يحتله"¹⁶.

2. وتبرز كذلك السلطة كصيغة تفاعلية بين أفراد المجتمع، تحكمها علاقة التأثير والتأثر، "إن السلطة عبارة عن شكل في ممارسة التأثير في البرامج السياسية للآخرين..."¹⁷.

- تأكيداً على اعتماد السلطة على سياق التفاعل بين الفاعلين الاجتماعيين يعرضها لنا رولد لاسويل بقوله: "إن السلطة هي وضع علاقات قائمة بين أشخاص والذين يسكون بالسلطة، فوضوا بذلك وهم يعتمدون في تمسكهم بالسلطة، ويستمررون في ذلك ما دام هناك تيار مستمر من استجابات الأفراد لتقويض السلطة، ومن ثم فإن العلاقات الإنسانية العارضة تقنع أي مراقب مختص بأن السلطة ليست حجارة يمكن نقلها من مكان إلى آخر، وإنما هي عملية تختفي عندما لا تكون هناك استجابات تدعمها"¹⁸.

3. كما ربط بعض العلماء الاجتماع مفهوم السلطة بالبنية، ومنهم تالكوتبارسونز الذي عرفها بأنها "القدرة على ممارسة بعض الوظائف لفائدة نظام اجتماعي مأخوذاً بـ"بكلية"¹⁹، على أنه يجب التمييز بين البنى والروابط الاجتماعية وميدان ممارسة السلطة في حد ذاته، فبالعودة للمفهوم الماركسي نجد أن السلطة تماثل مفهوم السيطرة، فمن نظام الروابط الطبقية وهو ما نلمسه في تعريف لينين: "إن ميدان عمل القوى الاجتماعية (روابط القوى) أو رابط السلطة، هو ميدان صراع الطبقات"²⁰.

من خلال القراءة في هذه التعريفات المختلفة نجد أن التحليل الاجتماعي لمفهوم السلطة ارتكز على عدة قرائن:

1. تعتمد السلطة على مسألة الإكراه وممارسة الحق.
2. السلطة باعتبارها علاقة تفاعلية أو علاقة تأثير وتأثر بين الفاعلين الاجتماعيين.

3. وصف السلطة بالبنية الاجتماعية والتي تعتبر كسياق عام يسهل سير الحياة الاجتماعية.

4. تعتبر الشرعية مصدر قوة السلطة أو مصدر تأثير في الأفراد لقبول سلطة معينة.

2. السلطة في المعاجم التاريخية والسياسية:

لقد أثار مفهوم السلطة خلافا فكريا وحركيا ولازال كذلك، بين العديد من المفكرين والسياسيين، على اعتبار أنها تتعلق بمسائل حساسة في الدولة الخاصة بمشكلة الطاعة وإثبات الشرعية والإذعان السياسي، وأخرى تخص حرية واستقلال الأفراد، وهو ما يتم ملاحظته عبر المراحل التاريخية المختلفة للبشرية، في هذا الإطار عرضها البعض على أنها:

1. "هي القدرة أو القوة التي تمكن من السيطرة على الناس ومن الضغط ورقابتهم للحصول على طاعتهم، والتدخل في حريتهم، وتوجيه جهودهم إلى أنواع معينة، وقد تستمد السلطة من شخصية الثائر عليها أو من التقاليد كنتيجة لاحتكار الثروة أو من القوة العسكرية، وكل نظام اجتماعي عبارة عن نسق من علاقات السلطة بين السادة والمسؤولين وبين المنافسة والتعاون"^{1 2}.

2. كما يشير مفهوم السلطة في إطار علم السياسة والقانون: "إلى الحق في ممارسة عمل ما بما في ذلك الحق في صنع القوانين أو السياسة العامة، على أنه يجب التمييز بين مفهوم السلطة ومفهوم القدرة أو القوة (Power) على اعتبار أن المفهوم الأخير يقصد به القدرة على جعل الغير منقادين أو مطيعين لمن يمارس عليهم النفوذ والقوة المادية أو المعنوية"^{2 2}.

3. وهي كذلك: "القوة ولكنها اكتسبت صفة الشرعية بالانتخابات أو بالتعيين، فهي القوة الرسمية المهيمنة على حكم البلاد، فالسلطة هي نفسها القوة ولكنها في الواقع تختلف عن القوة في حقيقة واحدة، هي أن معظم مستخدمي القوة قد لا يعرفون أن هؤلاء المستخدمين يملكون حقاً معنواً لممارسة القوة واستخدام العقوبات إذا لزم الأمر"^{2 3}.

نستنتج من هذه التعريفات أن السلطة شكلت ظاهرة سياسية وتاريخية ارتبطت ارتباطاً وثيقاً بتأسيس الدولة وقيام الحكم فيها انطلاقاً من مسألة الشرعية وعقلنة المبدأ، وهي بهذا المعنى قوة منظمة تهدف للإشراف على الشعب، ورعاية مصالحه، تطورت بتطور المجتمع، فأبسط صورها - كما سبق الذكر - سلطة الأب الروحية، سلطة شيخ القبيلة من ثم حاكم الدولة، كما تنوعت مرجعياتها وأصولها الأولية انطلاقاً من المجتمع في حد ذاته والشخص القائم بها وجملة الظروف الداخلية والخارجية التي تظهر فيها، في حين يرى بعض الباحثين أن السياسة هي صراع حول السلطة: "ليست المشكلة السياسية ذات طبيعة أخرى غير طبيعة المشكلة الاجتماعية، إنما هي وجه من وجوهها، وحلقة من حلقاتها، فإذا كانت المشكلة الاجتماعية هي مشكلة (علاقة الإنسان بالإنسان) فإن المشكلة السياسية هي ما يتعلق بجانب الحكم والسلطة من هذه العلاقة"^{2 4}.

إن مثل هذه الأطروحات تؤدي بنا إلى فهم السلطة على أنها مسألة تصل إلى درجة التعقيد، لأنها تحمل متغيرات فكرية عديدة، جعلت بعض المفكرين أمثال العروي ينظرون إليها بصفة كلية "من يظن أن حقيقة الدين، أو حقيقة الفلسفة، تسمو على حقيقة الدولة خاطئ، لأنه يرى الأمور بمنظار الإعقال وهو منظار

تجزئي تسطيحي ولو كان تعمق في الأمور ورآها بمنظار العقل الشمولي لأدرك أن مفهوم الدين هو مفهوم الفلسفة مصورا ممثلا، وأن مفهوم الفلسفة هو مضمون الدولة مجردا، وأخيرا إن مضمون التاريخ مجسد في الدولة، التناقض موجود وضروري، لكنه يعبر عن نقص، هو المحرك دون أن يكون الغاية...²⁵، الأمر الذي يجعلنا نفهم السلطة كنسق فلسفي تحكمه المعيارية الأخلاقية (الخير، الشر)، وكضرورة اجتماعية تختلف أنماطها وأساليبها وأشكالها وتبريرات ممارستها وطبيعتها تبعا لخصوصية كل مجتمع، بل إن معالجة موضوع السلطة وجد صداه منذ القدم في المناقشات الفلسفية ما ولد اتجاه يعرف بفلسفة السلطة وهو ما حاولنا توضيحه في هذا العرض الوجيز فالسلطة وضع اجتماعي متغير وفق المعيار الخلقي في المجتمع، كما بين ذلك أفلاطون وأرسطو، وإن اختلفت الصياغات بل وتطورها يرافقه تطور في أشكال الحكم، بل هو الأساس لتصنيف أنظمة الحكم، وعلى نفس النهج سار سبينوزا، في حين ألغى ميكافلي الجانب الخلقي عن ممارسة السلطة وجعلها مفهوم مجرد مطلق، في المقابل توصل العروي إلى تجلي النظر الفلسفي في ممارسة وشؤون الدولة.

2- القبيلة عند ابن خلدون:

شغلت القبيلة حيز كبير من أبحاث العلامة ابن خلدون، بل يمكن اعتبار ما قدمه بمثابة مقدمة لا يمكن تجاوزها بحكم انتمائه إلى المغرب الإسلامي، وعلى الرغم من المسافة التي تفصلنا عن هذه التجربة التاريخية، إلا أنها إطار نظري هام لفهم الروابط القبلية والعشائرية في المنطقة.

ركز ابن خلدون على فهم بنية القبيلة انطلاقاً من مفهوم العصبية لما يمثله من أهمية في تشكيل اللحمة القبلية و جعل لذلك مرتكزات في مقدمتها مسألة النسب، الذي عبر عنه بطريقة رمزية بمعنى أن النسب الذي يجمع أفراد القبيلة لا يقوم على روابط دم حقيقية دائماً "اعلم أنه من البين أن بعضاً من أهل الأنساب يسقط إلى أهل نسب آخر بقراءة إليهم أو حلف أو ولاء.....ومازالت الأنساب تسقط من شعب إلى شعب و يلتحم قوم بآخرين في الجاهلية و الإسلام و العرب و العجم"²⁶. يشير أحد الباحثين أن النسب هنا لا يعدو أن يكون معطى وهمي -على حد تعبيره- لا يصمد أمام وقائع الاختلاط وعلاقات الجوار من جهة أخرى يشير إلى دور العامل الجغرافي والاجتماعي والسياسي أي ضرورة تبلور الوعي بمصلحة عامة ومشتركة تشد جميع أعضاء القبيلة لما تستلزمه الحياة الجماعية من الدفاع عن الملكية الجماعية ضد الخطر الخارجي، مما يذكرنا بالإحساس بالانصهار ضمن المجموعة و يعزز تلاحمها الداخلي²⁷.

العصبية القبلية:

جعل ابن خلدون العصبية شرطاً أساسياً لقيام الملك" وذلك أن الرئاسة لا تكون إلا بالغلب و الغلب إنما يكون بالعصبية"²⁸، وهي في أبسط معانيها ذلك الشعور المعنوي بالانتماء للقبيلة و الغاية منها كما وضحها ابن خلدون اتفاق الأهواء على المطالبة، ولكن الوصول إلى هذه الغاية يكون بالارتكاز على الوازع الذي يوحد الأهواء "الصبغة الدينية تذهب بالتنافس و التحاسد الذي في أهل العصبية وتفرد الوجهة إلى الحق فاذا حصل لهم الاستبصار في أمرهم لم يقف لهم شيء لأن الوجهة واحدة و المطلوب متساو عندهم وهم مستميتون

عليه²⁹ في نفس السياق يعتبر الجابري أن الوازع هو منطلق النظرية الخلدونية "ينطلق ابن خلدون في دراسته و بيان الأساس الذي تقوم عليه و الدور الذي تلعبه في الحياة الاجتماعية عموما و حركة التاريخ خصوصا من فكرته في الوازع الذي جعله ضرورة من ضرورات الاجتماع و التعاون"³⁰.

- يميز ابن خلدون بين نوعين من الوازع: اجتماعي يمثل شيوخ القبائل وكبرائهم، وآخر ديني فالدعوة الدينية تمتن الروابط و الصلات بين أفراد القبيلة.

- إن الدور الأساسي للوازع هو تهذيب العصبية و تقوية أسسها "العصبية بها تكون الحماية والمدافعة والمطالبة وكل أمر يجتمع عليه و قدمنا أن الأدميين بالطبيعة الإنسانية يحتاجون في كل اجتماع إلى وازع و حاكم يزع بعضهم عن بعض فلا بد أن يكون متغلبا عليهم بتلك العصبية"³¹. كما يجب الإشارة لما سماه ابن خلدون بالمغالبة (الغلب و التغلب) لان المذلة و الانقياد على حد تعبيره كاسران لسورة العصبية و شدتها.

خاتمة:

- يصل بنا الحديث في هذا الإطار إلى أن السلطة كمفهوم عبر العصور تأثرت بالأحداث التاريخية والسياسية، بل وحمل هذا المفهوم الكثير من المخالفات الميتافيزيقية وحتى اللاهوتية، مما جعل الفكر السياسي الحديث المحتكر الوحيد للحديث عن هذه المسألة، بل أن السلطة كبنية فكرية ونمط في القيادة تفهم في سياق المطابقة والمرادفة على أنها فعل يقترن ويحمل معنى: السيطرة، الحكم، السياسة، الأنظمة والأجهزة المؤسساتية، الاستبداد، الطغیان في حالة الانحراف.

- إن السلطة كمصطلح لغوي غير متداول في مقدمة ابن خلدون لكنه وظف مفاهيم موازية و مرادفة لها كالرئاسة، السلطان، الحكم.
- يظهر الربط الوظيفي لمصطلحي السلطة و القبيلة في نظرية ابن خلدون من خلال شروط الخلافة حيث يعتبر النسب القرشي الشرط الذي يؤكد دور القبيلة في النظام السياسي لأن العصبيّة مسألة جوهرية من أجل القيادة بالنسبة لابن خلدون.
- اعتبر ابن خلدون أن سلطة القبيلة و قوتها من العوامل الأساسية لقيام الحكم واستمراره.

الهوامش:

- 1- شرايبي(هشام)، النقد الحضاري للمجتمع العربي في نهاية القرن العشرين، ط 1، مركز دراسات الوحدة العربية، بيروت، 1990، ص 11.
- 2- ابن منظور، لسان العرب، مج 7، ط 3، دار صادر، بيروت، 1994، ص 320- 321.
- 3- الزبيدي (محمد)، تاج العروس من جواهر القاموس، مج 5، ط 1، دار مكتبة الحياة، بيروت، 1306 هـ، ص 160.
- 4- سورة هود الآية 96.
- 5- سورة النحل، الآية 99- 100.
- 6- صليبا (جميل)، المعجم الفلسفي، ج 1، الشركة العالمية للكتاب (ش م ل)، بيروت، 1994، ص 670.
- 7- عمر (مختار أحمد)، معجم اللغة العربية المعاصرة، مج 2، ط 1، عالم الكتاب، القاهرة، 2008، ص 1093.
- 8- صليبا، المرجع السابق، ص 670.

- 9- الجاسور(ناظم)، موسوعة علم السياسة ص 213.
- 10- المرجع نفسه، ص 213.
- 11- معجم علم الاجتماع، تحرير: دينكن ميتشل، تر: إحسان محمد الحسن، ط 1، دار الطليعة، بيروت، 1981، ص 29.
- 12- جوزيف (إيمانويل)، الموسوعة العربية العالمية، مج 13، ط 2، مؤسسة أعمال الموسوعة للنشر والتوزيع، السعودية، 1999، ص 56.
- 13- بوريكو (بودون وف)، المعجم التقني لعلم الاجتماع، تر: سليم حداد، ط 1، ديوان المطبوعات الجامعية، الجزائر، 1986، ص 373.
- 14- معجم علم الاجتماع، تح دينكن ميتشل، المرجع السابق، ص 30.
- 15- المرجع نفسه، ص 30.
- 16- المرجع نفسه، ص 31.
- 17- ملحم (حسن)، التحليل الاجتماعي للسلطة، منشورات دحلب، الجزائر، ص 14.
- 18- الجاسور(ناظم)، المرجع السابق، ص 213.
- 19- المرجع نفسه، ص 214.
- 20- المرجع نفسه، ص 215.
- 21- نهان (محمد يحيى)، معجم مصطلحات التاريخ، ط 1، دار ياف العلمية للنشر والتوزيع، عمان، 2008، ص 165.
- 22- خشيم (مصطفى عبد الله)، موسوعة علم السياسة، ط 1، الدار الجماهيرية للنشر والتوزيع والإعلان، ليبيا، 1425 هـ، ص 205.
- 23- عبد الفتاح (إسماعيل)، معجم مصطلحات عصر العولمة، ط 1، الدار الثقافية للنشر، القاهرة، 2004، ص 106.
- 24- القبانجي (صدرالدين)، علم السياسة، ط 1، الشركة العالمية للكتاب، لبنان، 1997، ص 31.
- 25- العروي (عبدالله)، مفهوم الدولة، ط 7، المركز الثقافي العربي، الدار البيضاء، 2001، ص 21.

- 26- ابن خلدون (عبد الرحمن)، المقدمة، (د.ط)، دار و مكتبة الهلال، بيروت، 1988، ص90
- 27 - الهراس (المختار) وآخرون، الفكر الاجتماعي الخلدوني (المنهج و المفاهيم و الأزمة المعرفية)، ط1، مركز دراسات الوحدة العربية، بيروت، 2004، ص144 - 145
- 28 - ابن خلدون، مرجع سابق، ص91
- 29 - المصدر نفسه، ص110
- 30 - الجابري (محمد عابد)، العصبية و الدولة، ط9، مركز دراسات الوحدة العربية، بيروت، 2011، ص163.
- 31 - ابن خلدون، المقدمة ، ص96.